أثر اكتساب العلم في تهذيب الأخلاق من خلال كتاب :
"الأخلاق و السير في مداواة النفوس " لابن حزم الأندلسي

أ. بغدادي بشرى
جامعة تلمسان

ملخص البحث :

يعد كتاب" الأخلاق و السير في مداواة النفوس " لابن حزم الأندلسي من أجل آثاره الذي اهتم فيه بدراسة النفوس و تشخيص عللها لعلاجها و ذلك بتقويم أخلاقها حيث ضمن هذا المؤلف حكما و مواعظ قيمة صاغها في قالب أدبي فني جميل استقاها من تجاربه الخاصة و ظروف عصره وأحوال مجتمعه وبعض نظريات الفلسفة اليونانية .

و قد ذكر من جملة هذه النصائح ضرورة التسلح بالعلم و زاد المعرفة عن طريق الجد و الانكباب على تحصيله والنهل من مختلف منابعه، فبفضله يستطيع الفرد التمييز بين الفضائل و الرذائل كما يزكي نفسه بالخلق الكريم والسلوك القويم حتى يبلغ أسمى المقامات الإنسانية حيث سيسعى هذا البحث إلى تبيين أثر العلم في ترويض النفوس وإصلاح أخلاقها من خلال رسالة"الأخلاق و السير في مداواة النفوس" لمؤلفها ابن حزم الأندلسي.

الكلمات المفتاحية:

ابن حزم الأندلسي، الأخلاق، العلم، مداواة النفوس.

المقدمة :

إن العلم من أعظم النعم التي حبا الله بها عباده إذ جعل طلبه فريضة على كل مسلم و مسلمة لجليل نفعه و عظيم فائدته فهو يجعل الإنسان يبتكر و يبدع و يواكب عصره بكل ما يعرفه من تقدم علمي و تكنولوجي ، كما يزوده بمختلف المعارف و المعلومات و الثقافات في مختلف المجالات والتخصصات ، فضلا عن قيمته الخلقية التي تهدف إلى ترسيخ الفضيلة لديه و تجنيبه الرذيلة فتروض نفسه و يهذب سلوكه فتسمو روحه حتى يرقى إلى أعلى المقامات الإنسانية، وأما ابن حزم فقد أدرك هذا الدور الأخلاقي للعلم فألف كتابه : "الأخلاق و السير في مداواة النفوس " الذي أراد من خلاله مداواة النفوس و تقويمها و ذلك عن طريق تحليها بفضائل الأخلاق و تخليها عن سوء الطباع و الذي جعل العلم أساسا لتحقيق ذلك.

I -/نظرة عامة حول كتاب:" الأخلاق و السير في مداواة النفوس " لابن حزم الأندلسي :

إن امتلاك الملكة اللغوية و ناصية الكلام بالإضافة إلى قوة الحافظة المستوعبة و سرعة البديهة 1 من المواهب و السجايا التي طبعت بها شخصية ابن حزم 2 فعمل على صقلها بانكبابه على طلب العلم و تحصيله و ذلك بكثرة الاطلاع والنهل من مختلف منابع المعرفة ،كما ساهم في ذلك البيئة االتي ترعرع فيها – قرطبة 3– المزدهرة علميا و ثقافيا آنذاك ، و جهود والده الذي لم يمنعه الاشتغال بأرقى المناصب السياسية – الوزارة – على توفير كل الظروف المناسبة لتعليم ابنه و حرصه على تربيته أحسن تربية وذلك بمتابعته و مراقبته خوفا عليه من كيد النساء وبخاصة و منهن الجواري و القرينات اللائي عملن على تحفيظه القرآن و الشعر و تعليمه الأدب و تدريبه الخط إذ يشير إلى ذلك في كتاب طوق الحمامة :" لقد شاهدت النساء و علمت أن من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن و نشأت بين أيديهن و لم أعرف غيرهن ، و لا جالست النساء إلا و أنا في حد الشباب... وهن من علمنني القرآن و روينني كثيرا من الأشعار و دربنني الخط ."4 حيث كان لهن أثرا كبيرا في إعداد و تكوين ابن حزم من الناحية الأخلاقية و النفسية و المعرفية ؛ فهي

عوامل ساعدت على توسع مداركه و نضج فكره ليصبح عالما موسوعيا و عارفا بقضايا الأدب و اللغة إذ يثني عليه الإمام الذهبي في كتابه السير فيقول : " ابن حزم الإمام الأوحد ، البحر ذو الفنون و المعارف ... الفقيه الحافظ المتكلل الأديب .... رزق ذكاء مفرطا و ذهنا سيالا و كتبا نفيسة كثيرة ...و هو رأس في علوم الإسلام متبحر في النقل .... و ذكاء ينهض بعلوم جمة يجيد النقل و يحسن النظم و النثر و فيه دين وخير و مقاصد جميلة ، و له مصنفات مفيدة و قد زهد في الرياسة و لزم منزله مكبا على العلم ، فلا تغلو فيه و لا تشفو عنه ، قد أثنى عليه قبلنا الكبار ."5

فكان أديبا بارعا متمكنا من ضروب النظم و فنون النثر إذ كان يجيد الصياغة بأسلوب يمتاز بجزالة الديباجة و جمال الصور البيانية6 ، كما كان كاتبا مجيدا في جميع مجالات المعرفة حيث انعكس ذلك جليا في إنتاجه الفكري الضخم الذي أبان عن ثقافة الرجل الشاملة و نبوغه الفكري و ذكائه الوقاد ، و قد شمل تراثه مختلف العلوم من فقه و مناظرة و فلسفة و علم النفس و الأخلاق وغيرها كتب له الخلود و الذيوع رغم حرق و إتلاف الكثير منه.

1/ التعريف بكتاب الأخلاق و السير :

- يعد ابن حزم الأندلسي من العلماء المسلمين الذين كانت لهم الريادة و الفضل في الاهتمام بالدراسات النفسية و الأخلاقية ، و يعتبر كتاب الأخلاق و السير في مداوة النفوس من أجل الآثار التي تركها الرجل في هذا المجال والتي عني فيها بالحديث عن الأخلاق و تقويمها و ذلك بالتفريق بين الفضائل و الرذائل و ذكر ما يفيد في إصلاح الفاسد منها ، بالإضافة إلى دراسة النفوس و تشخيص عللها لعلاجها و مداواتها .

و قد ذهب بعض الباحثين إلى أن رسالة "الأخلاق والسير" هي بعينها رسالة "مداواة النفوس و تهذيب الأخلاق و الزهد في الرذائل " التي حققها إحسان عباس في كتابه "رسائل ابن حزم " سنة 1953 و غيره آخرون حتى بلغت عدد طبعاته 15 طبعة حملت عناوين مختلفة منها : " أخلاق النفس" و "أخلاق النفس و السير الفاضلة "و يرجع الدباس " السبب في هذا الاضطراب في عنوان الكتاب إلى أن ابن حزم قد أشار إلى الكتاب و هو لم يزل فكرة لم تخرج بعد إلى حيز الوجود و حين تبلورت الأفكار و نضجت و فرغ من تأليف الكتاب أعطاه اسما يختلف عما كان ذكره." 8

و هذا الكتاب أتى في حجم صغير لكنه ذو قيمة عظيمة و منافع كثيرة و فوائد عديدة فضم حكما و عظات جليلة حتى أنه ورد اسمه ب"كتاب الحكم "9 جاءت في شكل عبارات بليغة و معبرة ، و يظهر للقارئ أنه كتبها في آخر حياته :" إني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة ، أفادنيها واهب تمييز تعالى بمرور الأيام و تعاقب الأحوال مما منحني عز و جل من التهمم بتصاريف الزمان و الإشراف على أحواله حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري و آثرت تقييد ذلك له بالمطالعة ."10

هي حياة مليئة بالأحداث و متعاكسة في التيار ذاق فيها ابن حزم العذب و العذاب بدءا من طفولته المترفة في قصر الزهراء حتى توالت عليه الأزمات و النكبات المختلفة كموت الأهل و الأحبة و مرورا بتجربة السجن و الرحلات الإجبارية و حرق كتبه حتى بلوغه مرحلة عكوفه على التأليف و التصنيف بالإضافة إلى معايشته صنوفا و أشكالا مختلفة من الناس فعرف أخلاقهم و سبر أغوارهم و غاص في أعماق نفسياتهم ، و عليه تعد هذه التجارب التي عاشها في حياته أحد المصادر الأساسية التي اعتمدها في تحرير هذه الرسالة بالإضافة إلى الدراسات الفلسفية المبنية على العقل التي استقاها من دراسته علوم الأولين و بخاصة ما تعلق منها بالمنطق و ذلك بعدما اكتسى أنوار العلوم و المعارف المختلفة و تبلورت أفكاره مع ضرورة التذكير بارتكازه على كتاب الله العزيز الحكيم و سنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

كما جمعت هذه الرسالة بين جمال الأدب المكتوب بألفاظ موحية و جمل موجزة ذات دلالات عميقة مع دقة التحليل النفسي لتكون "قطعة أدبية إنسانية تصف لنا أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية تكشف لنا عن فضائله و رذائلهم مجردة تماما من كل ميل أهون ."11

و يرى بعض الباحثين أن ابن حزم جاء بمواعظه على طريقة سينكا و غيره من علماء الأخلاق ، و هو يشبه إلى حد غير قليل بعض الكنب الأخلاقية الحديثة مثل " الطباع " للابروريير و " مقالات في الأخلاق و السياسة " .12

2/ مضمون الكتاب :

هو رسالة صغيرة يستهلها ابن حزم بمقدمة تطرق فيها إلى مصادر مادته العلمية و غيرها التي اعتمد عليها في تأليف هذا الكتاب ثم أتبعها بحديثه عن أهمية الموضوع إذ يذكر أنه أفضل من جميع الملذات و الغرائز و أحسن و أغلى من جميع الثروات مع الاعتراف بقيمة الجهد المبذول والمتاعب التي تخطاها و تغلب عليها بإنجاز هذا العمل ، بالإضافة إلى ذكر قصده الشريف و صدق نيته من وراء هذه المدونة التي كان يهدف من خلالها لإصلاح ما فسد من أخلاق الناس و تهذيب سلوكهم بالحث على اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل راجيا رضا الله و عظيم أجره دون تحقيق المنافع الشخصية من جاه و منصب أو وقوفا عند رغبة ملك أو سلطان أو صديق ..... إذ يقول : " .... و الفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس ، و على الازدياد من فضول المال ، و زممت كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله به تعالى من يشاء من عباده من يصل إليه وأجهدتها و أطلت فيه فكري فيأخذه عفوا و أهديته إليه هنيئا ،فيكون ذلك له أفضل من كنوز المال و عقد الأملاك إذا تدبره و يسره الله تعالى لاستعماله و أنا راج في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده و إصلاح ما فسد من أخلاقهم و مداواة علل نفوسهم ."13

هي نصائح ثمينة مبثوثة في ثنايا الكتاب عظيم نفعها إذا أحسن الفرد قراءتها يتعلق بعضها بالعقل و العلم والحكمة ، و بعضها الآخر بأخلاق الناس و طباعهم و كوامن النفس و دوافعها أدرجها ضمن إحدى عشر فصلا بعد المقدمة وهي كالآتي :

- مداواة النفوس و إصلاح الأخلاق .
- العقل و الراحة .
- العلم .
- الأخلاق و السير .
- الإخوان و الصداقة و النصيحة .
- المحبة و أنواعها .
- الأخلاق و العادات .
- أدواء الأخلاق الفاسدة و مداواتها .
- غرائب أخلاق النفس .
- تطلع النفس إلى ما يسر عنها .
- حضور مجالس العلم . 14

و قد ذهب بعض الباحثين إلى إمكانية تقسيم الكتاب إلى ثلاثة محاور و هي : الاعترافات الأخلاقية و مجموعة الحكم و نظرية في الأخلاق .

*الاعترافات الأخلاقية : ولخص فيها ابن حزم ثمرة تجارب حياته بذكره لأهم الملاحظات التي استقاه من سقطاته و زلاته بهدف أن يتعظ الآخرون و يتجنبوا أخطاء السابقين فيتعلموا كيفية حماية أنفسهم لحظات الضعف و الاستسلام لنوازع الغريزة الإنسانية ؛ و من جملة ما ذكره من الاعترافات :

الكلف في الرضاء ، و إفراط في الغضب و تحمله الكثير من الصبر و المتاعب للتغلب على ذلك " ....فمنها كلف في الرضاء ، و إفراط في الغضب فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام و الفعل والتخبط و امتنعت مما لا يحل من الانتصار، و تحملت من ذلك ثقلا شديدا و صبرت على مضض مؤلم ، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضا ،وكأني سامحت نفسي في ذلك لأنها تمثلت أن ترك ذلك لِؤم ."15

و الامتناع عن بعض الحركات التي كان يقوم بها في صباه ، كقوله : " و منها حركات كانت تولدها غرارة الصبا و ضعف الإغضاء ، فقصرت نفسي على تركها فذهبت "16

و حديثه عن إعجابه بالنفس و استعماله التواضع كدواء لشفائه من هذه العلة : " و منها عجب شديد ، فناظر عقلي نفسي .بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب كله ، و لم يبق له – و الحمد لله – أثر ، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة ، و استعمال التواضع ."17

و قد لجأ ابن حزم ههنا إلى ممارسة نوع من التقويم الذاتي أو النقد الذاتي و كان الغرض منه إصلاح نفسه قبل إصلاح غيره و ذلك للتأثير في المتلقي و جذبه ليتعظ فيسير على النهج القويم في إصلاح أخلاقه و هذا عبارة عن"الاستبطان الذاتي التجريبي و هي طريقة يستعملها علماء النفس لمعرفة كيف يستجيب الفرد لحالات نفسية معينة فيخضعون أنفسهم لها عن طريق الاختبارات و يستنتجون ذلك من قواعد تفيدهم لدراسة نفسية الأفرادوتحديد نوع سلوكهم والطريقة التي يصفون بها نوازعهم وانفعالاتهم ."18 و عليه من أراد أن يهذب نفسه عليه أولا أن يشخص عيوبها بدقة من خلال التعرف إلى هذه العيوب عن طريق معرفة الصفات الذميمة و الأفعال القبيحة لأن تهذيب النفس غير ممكن من دون المعرفة بعللها وأمراضها.

*/مجموعة من الحكم : هي عظات اكتنزها عقله نتيجة اطلاعه الواسع على ثقافات الأمم الأخرى و هو المجرب والحكيم الخبير بسلوكيات الأفراد و طباعهم و العارف بأحكام الشريعة الإسلامية المستمدة من مصادر الدين الحنيف أودعها في هذا الكتاب الذي كان يرجو من وراءه بناء القواعد الخلقية و النفسية التي تقوم عليها حياة الأفراد كضبط العلاقات الاجتماعية حتى يتمكن الفرد من تحقيق تواصل ايجابي مع الآخرين و ما يندرج تحت هذا من علاقات الصداقة و المحبة ...... بالإضافة إلى حديثه عن إصلاح الأخلاق ومداواة النفوس و مما نسوقه في هذا الصدد ، حديثه عن النصيحة : " و حد النصيحة و هو أن يسوء المرء ما ضر الآخر ، ساء ذلك الآخر أم لم يسؤه ، و أن يسره ما نفعه سر الآخر أو ساءه ، فهذا شرط في النصيحة زائد عن شروط الصداقة ."19 و حديثه عن غايات الصداقة فيقول : " و أقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك ، و آثرك على من سواك ."20 و حديثه عن ضرورة تجنب الطمع : " فالطمع إذا أصل لكل ذل و لكل هم وهو خلق سوء ذميم و ضده نزاهة النفس و هذه صفة فاضلة مركبة من النجدة و الجود و العدل و الفهم ، لأنه رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها ، و كانت فيه نجدة أنتجت له عزة نفسه فتنزه ، و كانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته ، و كانت فيه طبيعة عدل حببت إليه القناعة و قلة الطمع ."21

*/ طرد الهم : يعتبر هذا القسم من أهم الأهداف التي حبر من أجلها هذا الكتاب و التي تتمثل في مداواة النفوس حيث تكون علتها الهم الناشئ عن القلق ، " و قد اهتدى ابن حزم إلى دوافع السلوك البشري حيث تبين له أن الناس كلهم يتفقون في مطلب واحد و هو خفض القلق (طرد الهم) الناتج عن متطلبات الحياة اليومية مستعملين لأجل تحقيق هذه الغاية وسائل شتى و متنوعة فالدوافع للسلوك هو خفض القلق الناتج عن عدم إشباع الحاجاتاليومية ." 22فطرد القلق هو الهدف الذي يسعى لتحقيقه كل فرد ليسعى حياة طيبة و سعيدة ، إذ يقول ابن حزم في هذا الصدد : " تطلبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه و في طلبه ، فلم أجده إلا واحدا ، و هو طرد الهم ...." 23و يقول أيضا : "فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها – منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء و يعاقبه عالم عالم الحساب – على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيأ سواه ، و كل غرض غيره ففي الناس من لا يستحسنه ، إذ في الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، و في الناس من أهل الشر من لا يريد الخير و لا الأمن و لا الحق ، و في الناس من يؤثر الخمول بهواه و إرادته على بعد الصيت . و في الناس من لا يريد المال ، و يؤثر عدمه على وجوده ، ككثير من الأنبياء –عليهم السلام – و من تلاهم من الزهاد و الفلاسفة ."24

هذه جملة من الوصايا القيمة قدمها ابن حزم إلى معاصريه لكي تتداولها الأجيال اللاحقة ليسعدوا في دنياهم و آخرتهم ، و نظرا لهذه القيمة الكبيرة و الآثار الجليلة التي حفل بها هذا الكتاب استحق ثناء الباحثين والدارسين قدماء و محدثين ، و مستشرقين و عرب ، فقد وصفه المستشرق الإسباني باراسيون : " إنه أشبه بسجل يوميات سجل فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته ، و هذه الملاحظات ترد في الكتاب دون ترتيب يقصد به العلم و التربية و لم يراعى في تنسيقها منطق ، و نحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق الملاحظة أثناء تجاربه الواسعة ، و صاغها في قالب مبادئ عامة و حكم ." 25 و مما ذكره محمد أبو زهرة في شأن هذا الكتاب : " فإذا لم يكن لابن حزم سوى هاتين الرسالتين (طوق الحمامة و الأخلاق و السير في مداواة النفوس) لارتفع بهما إلى الذروة الأولى بين العلماء ، و إن كان حجمهما صغيرا فدلالتهما على عقل الكاتب و بلوغه الذروة في الدراسة و البحث قوية و كبيرة ." 26هاتان شهادتان كبيرتان في حق هذا الرجل الفذ الذي أمد الفكر الأندلسي بإسهامات جليلة أفادت مجتمعه ممن اطلع على إنتاجه العلمي الغزير .

3/ظروف تأليف الكتاب :

لقد ارتبطت مؤلفات ابن حزم ارتباطا وثيقا بالظروف المختلفة التي أحاطت بالمجتمع الأندلسي حيث صورت حياة الأندلسيين من نواحي مختلفة منها السياسية و الدينية والاجتماعية و الاقتصادية و الخلقية ...... إذ تعتبر مؤلفاته " أكثر وثيقة مفصلة للحياة الثقافية و الفكرية و العقائدية التي انتظمت العالم الإسلامي و الأندلس بخاصة خلال القرون الثلاثة الرابع و الخامس و السادس للهجرة" .27

و كان ابن حزم من أكثر العلماء تفاعلا مع عصره وتجاوبا مع ظروف بيئته المختلفة التي عملت على إثارة كوامن الفكر فيه من نواح متعددة و اتجاهات مختلفة منها العلمية و الفكرية و النفسية و دفعه للتأليف ، إذ تعد رسالة مداواة النفوس من كتاباته الخلقية و النفسية محاورات بينه و بين روح الاجتماع لذلك العصر28 حيث جعل من أحوال مجتمعه مادة علمية أخضعها للاستقراء و الاستنباط والتحليل – بعدما سبر أغواره و تغلغل إلى أعماقه و حلل نفسياته و كشف دفائنها – فسيرها حكما و مواعظ أراد بها علاج النفوس التي أصابها الوهن و الضعف بسبب سوء الأخلاق وفساد الطباع و تفشي الرذائل نتيجة الخلل الذي عرفته المنظومة الأخلاقية في الأندلس فهز كيان الدولة – حاكميها و محكوميها – و تضعضع

بنيانها ، و ذلك لأسباب و تداعيات يمكن حصرها في العصر الذي عاش فيه ابن حزم حيث عرف فوضى سياسية نتيجة كثرة الفتن و القلاقل كالفتنة القرطبية الكبرى بسبب ضعف الحكام وصغر سنهم و تعاقب فترات الحكم من حاكم لآخر،مما أدى إلى أفول نجم الدولة الأموية و بداية عصر ملوك الطوائف الذي كاد يعجل بنهاية الأندلس نتيجة السعي وراء السلطة و تناحر حكامها حول الاستيلاء على أكبر قدر من دويلات الأندلس المتفككة . و قد رافق هذا الاضطراب السياسي انحلالا خلقيا مس جميع طبقات المجتمع حتى بلغ بعض الفقهاء والقضاة وعلماء الدين الذين سايروا الحكام بسبب طمعهم و جشعهم من أجل ارتقاء المناصب الدنيوية بالإضافة إلى انتشار مجالس الخمر و اللهو و الغناء و ظاهرة التغزل بالغلمان لكثرة الجواري و المغنيات و القصور و المنتزهات .... .

و هكذا ابن حزم مثال للرجل العظيم الذي يصنعه عصره و يصنع عصره29 بعطائه الفكري متخطيا كل الصعاب والعقبات ، فدرس مجتمعه دراسة علمية و ذلك بالبحث عن أهم ما يميزه من خصائص اجتماعية و نفسية الإيجابية والسلبية منها و ذلك لتشخيص أسباب الداء و إيجاد الدواء.

II-/أهمية العلم في تهذيب الأخلاق من خلال كتاب "مداواة النفوس":

يحظى الكتاب و الأدباء بمكانة مرموقة و منزلة رفيعة في مجتمعاتهم لأنهم يمثلون المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها الأمم في بنائها إذ يعملون على إشاعة الفكر النير و الكلمة الهادفة اللذين يرميان إلى إعداد الفرد الصالح الذي يسهم في تشييد الحضارات و تقدمها و ذلك لن يتأتى إلا عن طريق إصلاح نفسه بتهذيب أخلاقه و ضبط تصرفاته و محاربة كل ما يمكن أن يخل بطباعه و يفسد خلاله الطيبة.

و نظرا لتميز ابن حزم – و على هذا الأساس – بالذكاء والنبوغ و إلمامه الواسع بشتى العلوم و المعارف و بخاصة المتعلقة منها بالأخلاق و علم النفس و إدراكه التام بأحوال عصره و مختلف الظواهر الاجتماعية التي ارتبطت بذلك الواقع الذي غاص في أعماقه و درسه عن طريق النظر والبحث و التجريب أن يرصد مواطن الضعف و الخلل فيه من تفسق أخلاقي رهيب و انحراف الناس عن جادة السبيل و عدم تمكنهم من التمييز بين الحلال و الحرام ..... فعمد إلى إصلاح هذا الخلل و تقويم هذا الاعوجاج من خلال تأليفه كتاب الأخلاق و السير في مداواة النفوس حيث كان عبارة عن وصفة قدم من خلالها الدواء لعلاج هذه النفوس و ذلك بتوجيهها نحو الأفضل و الأحسن و إنقاذها من الهلاك و الضياع الذي رآه في إصلاح أخلاقها مع ضرورة تحليها بالفضيلة و تخليها عن الرذيلة .

ذلك أن الإنسان هو أعظم مخلوقات الله تعالى الذي جعله في أفضل صورة و أحسن تقويم و ألزمه بضرورة تزكية نفسه بحسن الخلق و هذا لدورها الرائد في تسيير حياة الأفراد وتوجيه سلوكهم و علاقاتهم داخل المجتمع الواحد و الحفاظ على كيانهم و كينونتهم.

و ههنا تجدر الإشارة إلى ضرورة التفريق بين الأخلاق والتخلق، إذ ينبه ابن مسكويه ينبه إلى قضية جوهرية في اكتساب الأخلاق و تهذيب النفوس و هي أن الأخلاق و إن كانت ملكة و طبعا إلا أنه قد يكون مبدؤها الروية و الفكر ثم تصبح ملكة و طبعا بالممارسة و التعود 30، و قد عرف ابن حزم الفضيلة على نحو ما فهمها أرسطو فهي وسط "بين الإفراط و التقصير و كلا الطرفين مذموم ." 31 كما أنها عادة تتكون بتكرار الأسلوب المكتسب ، و هذه إشارة مهمة إلى دور التربية و التعليم و الأخذ بالعلم في بعث الأخلاق و بثها في النفوس .

فالعلم ضروري يعمل على تكوين الإنسان و سعادته واستقراره ، لذا أكد ابن حزم على طلبه و اشتغاله، و هو لا يقل شأنا عن الأخلاق في بناء الفرد الصالح و الرقي به إلى أعلى درجات الكمال البشري الذي يعد لبنة أساسية في بناء الصالح

، حيث كلما كان الإنسان أكثر علما و معرفة كان أكثر دافعية و تحفيزا على اكتساب جميل الأخلاق إذ يقول ابن حزم :" يجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة وللجهل حصة في كل رذيلة و لا يأتي العلم إلا صافي الطبع جدا فاضل التركيب و هذه منزلة خص بها النبيون –عليهم الصلاة و السلام – لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس ." 32 فكل من العلم – و بخاصة العلم الرباني – و الأخلاق يتكاملان من اجل بلوغ الإنسان أعلى المقامات الإنسانية و الكمالات الرفيعة و ذلك بتحلية النفس بطيب الخلال و حسن الفضائل و تخلية النفس من الصفات الذميمة و الأخلاق القبيحة . و النورسي في دراسته لعلاقة العلم الأخلاق" يجد أنها قائمة في فكرة على أساس التأثر بخصائص العلم القرآني و هي خصائص تميزه عن من سواه بعضها يحلى بالفضائل و الكمالات و بعضها يخلى من الرذائل و النقائص ، و بهذه التحلية و التخلية يتم بناء الإنسان على النحو الأكمل و تستقيم صياغته على الوجه الأجمل فينشأ عن هذا البناء و هذه الصياغة مقام ثالث وهو ما يمكن تسميته مقام التجلية ."33 و لعل هذا هو أعلى مقام يمكن بلوغه و هي المنزلة الرفيعة التي خص بها الأنبياء و المرسلين كما ذكر ابن حزم كون علومهم تفوق جميع معارف البشر يتلقوها وحيا و إلهاما من عند الله تعالى ، و طبائعهم صافية التركيب إذ هم معصومون من الأخطاء و الزلل لأنهم خصوا بمعجزات و خوارق فبلغوا الكمالات المعنوية و المادية و لهذا كلفوا بمهمة الإصلاح وهداية البشر عن طريق تبليغهم لمختلف الرسالات السماوية.

و حتى الفرد يستطيع أن يسمو في مدارج الرقي البشري إذا انتهج أفضل الآليات و أنجع السبل لتحقيق ذلك و التي يمكن إرجاعها أساسا إلى العلم الرباني ذلك النور الذي يضيء طريق العبد نحو الهدى و التقوى ويعرف أمور دينه ودنياه و يحسن عبادة خالقه و يكسب رضاه و يقتدي بنهج نبيه محمد – صلى الله عليه و سلم – لهذا جعل ابن حزم العلم الرباني أفضل العلوم ؛ إذ يقول : " و أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى و ما أعانك إلى الوصول إلى رضاه .34 كون هذا العلم يوضح للناس أهم الأسس التي يقوم عليها الدين الحنيف من أوامر و نواه و مستحبات ومكروهات و غيرها،كما يقدم شروحا عن مختلف الأحكام الفقهية التي يحتاجها المسلمون في حياتهم ما تعلق منها بالعبادات والآداب و الأخلاق و المعاملات .... المأخوذة من مصادر الشريعة المختلفة كما ينبهه إلى أحوال القيامة و أمور الآخرة و ما يترتب عن ذلك من جنة و نار و وعد و وعيد وعقاب و ثواب.

إذ هذا العلم يوجه صاحبه إلى الفضائل و يجنبه ارتكاب المعاصي و الذنوب و هو وقاية للإنسان من الزيغ والضلال و الانحراف و يرشده إلى الصلاح و الاستقامة فينضج فكره و تتوقد بصيرته و يصقل ذوقه و تسمو روحه ، فحين إذ يجيد التحكم في نفسه و معالجتها من أهوائها الفاسدة وأدوائها من قلق و آلام و هموم و وساوس كما يستطيع أن يروض نفسه و يكبح شهواته حتى لا يصبح قيدا غرائزه ونزعاته الإنسانية المختلفة، كما يقول ابن حزم لنزواته و في هذا الصدد : " لو لم يكن من فائدة العلم و الاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية و مطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم ، و كفاية الأفكار المؤلمة للنفس ، لكان ذلك أعظم داع إليه فكيف و له من الفضائل ما يطول ذكره ."35

و عليه فالعلم يمكن الفرد من اكتساب طيب الخلال ليترفع خلقه و يحسن سلوكه و يجيد التصرف و يكون أفضل خلق الله في طريقة العيش فتتحقق إنسانيته ليعمر الأرض ويكون أحسن خليفة و يعبد خالقه كما أمره و يسعى من أجل تحقيق الخير لنفسه و لصالح البشرية جمعاء بالعمل المثمر و التفكير الصحيح ، إذ يعد العلم " وسيلة بشرية إلى تكون تصور صحيح للقيم و الحياة و الوجود يتلاءم مع الوجود ويتسم بالواقعية ويصل بالإنسان إلى إدراك سر وجوده في الحياة" 36 و هنا تكمن أهمية تحكيم العقل الذي أكرم الله به الإنسان و فضله عن جميع مخلوقاته في ضرورة اهتداء العبد إلى المناهج

السليمة في توظيف هذه الأخلاق إلى المعرفة التي تحيله على التمييز بين الصالح والطالح و بين الخبيث و الطيب إذ يتحدث ابن حزم : " حد العقل استعمال الطاعات و الفضائل . و هذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي و الرذائل ." 37

و كل ما كان الإنسان أكثر علما و معرفة و إدراكا وفهما تاقت نفسه إلى الفضيلة و الخلق القويم فالعقل يعد حصنا منيعا ضد الجهل الذي يؤدي بالإنسان إلى الهاوية والضياع ، إذ يقول ابن حزم في هذا المجال : " منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة ، و هو أنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها و لو في الندرة ،ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها و لو في الندرة ."38

والحديث عن فضل العلم في تزكية الخلق و النفس من المنظور الحزمي يجرنا إلى الحديث عن قيمة العلماء ؛ فهم ورثة الأنبياء لا يورثون المال إنما الفكر الخالد الذي يرسون من خلاله القيم النبيلة و الآراء السديدة والتوجهات الصحيحة التي تبني المجتمع الصالح وتخدم البشرية جمعاء لتحيى حياة آمنة ومستقرة مواكبة لجميع مظاهر التطور العلمي والفكري والتكنولوجي .... وقد بجل الله تعالى العلماء ورفع من شأنهم و أعلى من منزلتهم في الدنيا والآخرة إذ يقول تعالى: " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ."39 وقوله عز و جل : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ."40 وابن حزم يؤكد على هذه المكانة العالية بل جعلها دافعا و حافزا كبيرا لضرورة اكتسابه فيقول : " لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك و يجلونك و أن العلماء يحبونك و يكرمونك لكان ذلك سببا لوجوب طلبه ."41

ونبه ابن حزم في رسالة" الأخلاق و السير في مداواة النفوس " إلى وسائل التزود بالعلم فمنها ضرورة تحصيله عن طريق النهل من منابعه المختلفة و الانكباب على مطالعة المدونات فيقول : " كانت في عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء – صلوات الله عليهم –والأفاضل من الحكماء المتأخرين و المتقدمين في الأخلاق و في آداب النفس ، أعاني مداواتها ، حتى أعان الله– عز و جل –على أكثر ذلك بتوفيقه منه ."42

وهذه إشارة إلى ما تسخر به الكتب من علوم و معارف متعلقة بالتراث البشري و الحضارات الإنسانية المختلفة عبر العصور و كذلك قراءة الكتب التي تحمل بين دفاتها كل ما يسمو بالخلق و يرتقي بالإنسان نحو الأحسن و كتب الدين و الرقائق التي تكون مليئة بجملة من النصائح القيمة التي تجعل الإنسان لوحده كفيلا بمعالجة أمراض نفسه وإصلاحها و بالتالي التمكن من إصلاح مجتمعه ، كما فعل ابن حزم الذي استطاع أن يكشف عن عيوبه و يقومها و كذلك رصد مظاهر الانحلال الخلقي الذي أصاب مجتمعه للقضاء عليها من أجل حياة أفضل و ذلك ثمرة الكتب و المدونات لمسلمين وغيرهم .

وكذلك حتمية ملازمة العلماء و الحضور إلى مجالس العلم فيقول : "إذا حضرت مجلس علم ، فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علما و أجرا ، لا حضور مستغن بما عندك طالبا عثرة تشيعها ، أوغريبة تشنعها، فهذه أفعال الأرذال النين لا يفلحون في العلم أبدا.فإذا حضرتها على هذه النية ، فجلوسك في منزلك أروح لبدنك ، و أكرم لخلقك وأسلم لدينك . فإذا حضرتها كما ذكرنا ، فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، و هي : إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة ، و على الثناء عليك بقلة الفضول ، و على كرم المجالسة و مودة من تجالس ."43

فالمداومة على مجالس العلم تعود على صاحبها بكثير من النفع و الفائدة و ذلك لما يتلقاه من مدرسيه من معلومات كثيرة ادخرها عقله ليستفيد منها الطلبة ، كذلك حصول المتعلم على أفكار جديدة نتيجة اختلاف وجهات النظر و الرؤى حول القضايا المعينة حسب تعدد مداركهم مذاهبهم و توجهاتهم .

الخاتمة :

وخلاصة القول : إن ابن حزم علم من أعلام الأندلس البارزين الذين ساهموا في صناعة حضارتها لغزارة إنتاجه الفكري الذي انعكس في مؤلفاته الكثيرة التي نمت عن ثقافة الرجل الشاملة و إحاطته الواسعة بمختلف العلوم والفنون ، و يعتبر" كتاب الأخلاق و السير في مداواة النفوس " من أجل آثاره قيمة و أكثرها نفعا و ذلك لما تضمنه من حكم و مواعظ شكلت ركيزة متينة في بناء المنظومة الأخلاقية لأي مجتمع يصيبه الفساد و الانحراف عن جادة السبيل .

الإحالات و الهوامش :

1/ ابن حزم ، حياته و عصره آرائه الفقهية : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي : القاهرة مصر (د.ط)، (د.ت): 66 .

2/ هو الفقيه الظاهري اسمه الكامل علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية الفارسي الأصل الأموي اليزيدي القرطبي ، ولد في آخر يوم من شهر رمضان 384 ه في قصر أبيه في مدينة قرطبة ، و هو ينتمي إلى عائلة ذات مجد و عز ، توفي ليلة 28 شعبان 456ه في قرية منت ليشم ، نقلا عن:أبحاث المؤتمر الأندلسي الشخصية و الأثر ابن حزم الأندلسي فقيها(384 هـ 456 هـ): كمال الدين عبد الغني المرسي ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر : الإسكندرية- مصر (د.ط)،(د.ت)، 2004: 155-156.

3/ كانت قرطبة منارة للعلم آنذاك و محاجا للعلماء والفقهاء و الأدباء من كل حدب و صوب للاستزادة من العلم والتحصيل أو التدريس فقد شهد عصر الدولة الأموية بالأندلس ازدهارا علميا كبيرا لاهتمام الخلفاء و الأمراء بالعلم والعناية به و ظهر ذلك جليا بإنشاء المكتبات و اقتناء الكتب... "كانت قرطبة في الدولة الأموية قبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخليفة المروانية و فيها تمخض خلاصة القبائل المعدية و اليمانية و إليها كانت الرحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء و معدن العلماء ...." نقلا عن:ابن حزم رائد الفكر العلمي عبد اللطيف شرارة ، المكتب التجاري للطباعة و النشر والتوزيع: بيروت- لبنان ، (د.ط)،(د.ت) : 14 - 15 .

4/ نقلا عن: أبحاث المؤتمر الأندلسي الشخصية و الأثر ابن حزم الأندلسي فقيها 384 هـ - 456 هـ : كمال الدين عبد الغني المرسي ك 157 .

5/ نقلا عن : إلزامات ابن حزم الظاهري (ت:456ه) فقهاء المذاهب الأربعة في كتاب الصيام و الحج من المحلى جمعا ودراسة و تقديما ، إعداد الطالب : فخري بن بركان بن بكي القرشي ،إشراف فضيلة الشيخ عبد الله بن حمد بن نصر العطميل ، كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية ،جامعة أم القرى: السعودية ،1433 هـ- 1434 هـ : 90 .

6/ ابن حزم حياته و عصره و آرائه و فقهه ، محمد أبو زهرة : 10 .

7/ فلسفة الحب و الأخلاق عند ابن حزم الأندلسي ، حامد أحمد الدباس ، دار الإبداع للنشر و التوزيع : الأردن، ط1 1993 : 68 .

8/ فلسفة الحب و الأخلاق عند ابن حزم الأندلسي ، حامد أحمد الدباس : 68.

9/ ابن حزم الأندلسي ، زكريا إبراهيم ، الدار المصرية للتأليف و الترجمة (د.ط ، د.ت) : 74 .

10/ الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم ، دار البعث للطباعة و النشر: قسنطينة - الجزائر (د.ط)، (د.ت) 1402 ه- 1982م : 11 .

11/ ابن حزم الأندلسي ، زكريا إبراهيم :8 .

12/المرجع نفسه.

13/ الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم : 12.

14 /المصدر نفسه: 96 .

15/المصدر نفسه: 34 .

16/المصدر نفسه .

17/المصدر نفسه.

18/ الصحة النفسية و مداواة النفوس عند ابن حزم ، موسوعة الإرشاد النفسي و التربوي :www.landcivi.com/new

19/الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم :42 .

20/المصدر نفسه:42 -43 .

21/المصدر نفسه: 35-36.

22/ الصحة النفسية و مداواة النفوس عند ابن حزم ، موسوعة الإرشاد النفسي و التربوي : www.landcivi.com/new

23/ الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم : 14 .

24/المصدر نفسه.

25 ابن حزم الأندلسي ، زكريا إبراهيم : 8.

26/ ابن حزم ، حياته و عصره آرائه الفقهي ، محمد أبو زهرة : 154 .

27 / مصادر علم ابن حزم ، محمد هشام النعسان :www.eawraq.com/news

28/ ابن حزم ، حياته و عصره آرائه الفقهي ، محمد أبو زهرة :89 .

29 / ابن حزم الأندلسي و منهجه في نقد العقل الأصولي ، شرف الدين عبد الحميد ، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع: عمان – الأردن ، ط1، 2011 : 15 .

30 /الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف ، يوسف شحدة الكحلوت :1431 ه 2010 م : 373 . www.ahlahaddeth.com

31 / فلسفة الحب و الأخلاق عند ابن حزم ، حامد أحمد الدباس : 131 .

32 / ابن حزم الأندلسي الأخلاق و السير في مداواة النفوس ابن حزم الأندلسي : 25 .

33 / العلم و الأخلاق و أثرهما في بناء الإنسان عند النورسي ، . محمد الروكي ، مجلة حراء: www.hiramagazine.com/

36 /الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم : 22 .

35 /المصدر نفسه:21 .

36 / أصول الفكر التربوي في الإسلام ، عباس محجوب : 33 . نقلا عن : الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي ، عصر ملوك الطوائف ، يوسف شحدة الكحلوت : 380 .

37 /الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم : 58 .

38 /المصدر نفسه : 24 – 25 .

39 / المجادلة : 11 .

40 / فاطر : 28 .

41 / الأخلاق و السير في مداواة النفوس ، ابن حزم : 21 .

42 /المصدر نفسه: 33 .

43 /المصدر نفسه: 92 .